لعلَّ صَوتَ اليوم يَغدُو فِعْلَ الغَد

وسيم الكردي

ما يجري في «الصف المدرسي» في «عالم»، وما يجري في «العالم» هو في «عالم آخر» غير «الصف». هذا مؤكد من ناحية، ويمكن إثباته بسهولة؛ فلا المنهاج ولا المقرر ولا الأنشطة . . . تقارب أيًّا مما يجري في المجتمع، ويبدو التعليم منبتَّ الصلة عما يجري في الحياة، فلا صلة له ولا علاقة بما يجري في المجتمع. إنها السياسة، فلتبقَ بعيداً عمّا يجري في حقل التربية! وفي الحقيقة أيضاً، إن ما يجري في المدرسة، وفي حجرة الصف بوجه خاص، هو ألصق ما يكون بالسياسة، وبكل أوجهها، ولكن من وجهها الآخر؛ لأن علاقة المدرسة بمحيطها الاجتماعي وبمجتمعها الواسع ظلت على صلة به، والجوهري هنا هو شكل العلاقة وطبيعتها وجوهرها، وهذا ما ءوفرته المناهج التعليمية وأساليب التعليم وأنظمة التعليم وسياساته على امتداد القرن الماضي، وبدايات القرن الحالي؛ وكانت دائماً السياسة في صلب النظام التعليمي كما كان النظام التعليمي في صلب السياسة أيضاً:

» فحين تصمت المدرسة عما يجري في خارجها، فإن صمتها هو تواطؤ يغذّي الصوت خارجها فيعلو ويعلو ويغدو ضجيجاً لا أصوات فيه . . . أليست هذه سياسة؟!

» حين لا يتعلمُ المتعلمُ سوى أن يلقّن ما ينبغي له أن «يتعلمه»، فحجرة الصف تتماهى مع ثقافة مجتمعية لها رواجها؛ فهناك من «يعرف»، وهناك من «لا يعرف»، والذي يعرف يمتلك حق سكب «المعرفة» في «إناء فارغ» هو من لا يمتلك قداسة أنه يعرف، فهو جزء من جمع ينبغي توجيهه وتعيين مصلحته من قبل «عارفين» دائماً، وهو لا يملك من زمام أمره شيئاً، سوى أن يستجيب وأن يطيع. وهذا يشبه كثيراً الدور الطاغي لثقافة الفتوى الطاغية هذه الأيام في كل محفل؛ من ساحة في قرية إلى فضائيات تتوالد كالفطر، إلى مواقع التواصل الاجتماعي التي تغدو في كثير من الأحيان مواقع «التكاسل الاجتماعي»، وفي كل هذه الساحات يتصدى من يدّعون امتلاك الأجوبة لكل الأسئلة، ومن ثم تلقيمها لمن يتطلعون إلى خلاص دنيوي وآخر آخروي. وهم طبعاً وفق منظار «العارفين»، لا يمتلكون من العقل والخيال والمشاعر ما يؤهلهم لتقليب الأمور وبحثها، فتأتيهم الفتاوى مقننة ومعلبة وجاهزة ومنجزة، وما عليك سوى أن تبتلعها، فلا داعي للهضم، ومن ثم فلا داعي للتفكير، ولا ضرورة للتدبر في المسائل. أليست هذه سياسة؟!

» حينما تنأى المدرسة عما يحدث في المجتمع عن كل المظاهر والظواهر التي تحيط بها، فتعزل نفسها داخل جدرانها. ولكن هذا الانعزال الذي يبدو نأياً عن مجتمعها، هو في جوهره توطيد للانعزال خارجها أيضاً؛ الانعزال الذي لا يرى سوى صوت واحد ورؤية واحدة ويعزل ما عداهما. يقصي كل ما لا يتوافق مع رؤية أحادية . . . إنه عزل وانعزال في الوقت نفسه. أليست هذه سياسة؟!

» حينما تصغر المدرسة لتغدو مجالاً لأيديولوجيا معينة، أو لتصور أحادي، لرؤية واحدة، لمنطق واحد، حين يغدو كل فكر وكل فعل وكل تعبير متشابهاً وله شكل واحد، ومصبوغاً بدهان واحد . . . أليست هذه سياسة؟!

» حين يجري تقييم الطلاب وتصنيفهم في ضوء علاماتهم، وليس في ضوء أفعالهم وممارساتهم . . . أليست هذه سياسة؟!

» حينما تتخرج أجيال وأجيال لا تدري ما ستصنع، وما الذي ستفعله في حياتها، كانت قد مرت بما أقله اثنتي عشرة سنة؟ أليست هذه سياسة؟!

» حينما يمرَّر المرء في عجلة «تعليمية» كي يكون «برغياً» في عجلة أكبر منها . . . أليست هذه سياسة؟!

» حينما يستعاض عن تعليم الفنون بتعليم العلوم مثلاً، وينظر إلى الفنون على أنها غير ذات شأن، ونضع مكانها ما نظنه أكثر أهمية وأساسية كالعلوم والرياضيات، فنلغيها . . . أليست هذه سياسة؟!

» حينما تكون الموضوعات التعليمية منفصلة عن بعضها البعض، وتنكمش الصلات فيما بينها وتشوه أيضاً، ويغدو ما نتعلمه لا نظير له فيما نعيشه. أليست هذه سياسة؟!

» حينما تصمت المدرسة عن دور اجتماعي وثقافي متصل بمؤسسات المجتمع وهيئاته وبناه؟! أليست هذه سياسة؟!

» أليس استيراد منهاج وتدريسه كما هو دون أخذ بالاعتبار مواءمته

لرؤية مجتمعية وثقافة أصيلة يخرج من «باب التعليم» إلى «بوابة السياسة»؟ أليست هذه سياسة؟!

» حينما نتطلع إلى «مثال جاهز» في كل شيء فننسخه . . . أليست هذه سياسة؟!

» وحين تصمت المدرسة عن دم أبنائها كما يحدث في كثير من دول العالم العربي هذه الأيام . . . أليست هذه سياسة؟!

في كل ذلك . . . وغيره تسهم المدرسة بصورتها هذه في تكريس الاستعباد، وفي تلقيم السكوت، وفي تأجيج الإقصاء، وفي كتم الصوت، وفي مؤالفة السائد . . . .

وفقط، حين تشاكس المدرسة دورها المعتاد، هذا الدور الذي ارتئي لها، وكرسته السلطات عبر التاريخ، ربما قد تتسم بيفاعة جديدة تحفزها على نفض ما تكدس عليها، ليس من غبار الأيام فحسب، بل من هيكليات ينبغي تقويضها هي وغبارها. ربما حينها ستشرع في إحداث تغيير في دورها الذي ليس قضاء وقدراً ومكتوباً علينا . . . .

هذه السياسات وغيرها، وفي محصلتها . . . هي استبداد وقمع لطاقة الطفل/ التلميذ . . . . وهي تشبه كثيراً الاستبداد الذي يقع عليه من المجتمع أيضاً، ربما القمع في صورته الرمزية أكثر وطأة هنا؛ لأن بناه الرمزية أكثر كثافة. لذلك، فإن ما يبدو، وكأن ما يجري في «الصف» في عالم آخر يحتاج إلى فحص، وإلى إعادة نظر. إذا ما كان الذي هو في حجرة الصف، هو الأحادي، المغلق، التلقيني . . . فإنه لا يشبه جزءاً من الصورة التي نراها في «العالم» خارج الصف فحسب، بل إن كلاً منهما تغذي بقاء الأخرى؛ بقاء صورة النمطي، الأحادي، الوثوقي، اليقيني . . . الذي يقوم على انتظار الآخر كي يقرر لنا ما هو صائب وما هو نقيضه؛ ثم نجري وراءه كقطيع يهتف، وكأن في هذا الذي لا نفكر فيه ولا نتخيله هو ما ينبغي أن نصرخه. وليس هناك أخطر على حياة أطفالنا ومستقبلهم من صورة كهذه لا تمنحهم فرصة أن يعبّروا عن ذواتهم وعما يريدونه بشأن حياتهم، وما يرونه بخصوص مستقبلهم. بل يغدون أسرى لسلطات هي سياسية في كل أحوالها، وتأتي من مصادر سلطوية متعددة من هيكليات ومؤسسات سائدة، وتأتي من مؤسسات وبنى مجتمعية اجتماعية تستمد قوتها من توظيف العشائري والمالي والديني والأيديولوجي لإحكام سيطرتها. «**وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحوِّل ميلها الطبيعي من طلب الترقي إلى طلب التسفل، بحيث لو دُفعت إلى الرفعة لأبت، وتألمت كما يتألم الأجهر من النور. وإذا أُلزمت بالحرية تشقى، وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أطلق سراحها. وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة، فلا ينفك عنها حتى تموت، ويموت هو بموتها**» (**طبائع الاستبداد**: ؛ 171: عبد الرحمن الكواكبي).

***

في المجتمع، فإن القوى التي ترهب التغيير ولا تريده كثيرة، ولكنها في حال شروعه في الحدوث، فقد تماري هذا «التغيير» وتمالئه،

من فعاليات المساق التأسيسي (دراما في التعليم) للعام 2011 – 2012.

وتشتغل على أن يكون أداة من أدواتها، ولكن عبر صورة أخرى . . . . فليس مهماً أي أيديولوجيا هي التي «تحكم» في الظاهر، إنما المهم في سريان المصلحة، وستقوم الأيديولوجيا بخدمة حكمها، وهي جاهزة لتبريره بغض النظر عمن يظهر في الصورة كحاكم، طالما أن نظام الحكم في جوهره لم يتغير، وليس في تعارض مع مصلحة الآخر الذي كان هو السبب والسبب الأهم، وقد يكون الوحيد الذي أبقى الأنظمة لعقود، ولا يخفى عليكم أن أنظمة استبدادية أخرى لم تُطالب بالتغيير إلى حينه، طالما أن المصلحة متحققة، وليس هناك ما يهدد جدياً زوالها، وحين يبدو ذلك قائماً، فإن سياسة الممالأة سيرتفع شأنها . . . .

***

وفي هذا المضمار، إذن، فإن أفعال التغيير السياسي يمكن أن تسرق، ويمكن أن تخطف، يمكن أن تستلب، ويمكن أن تروَّض، يمكن أن تخون ويمكن أن تخان. . . . وهذا حدث عبر التاريخ، ويحدث وسيحدث. والمسألة ليست في حدوثه فحسب، بل كيف نتصرف قبل حدوثه وخلال حدوثه وبعد حدوثه . . . كيف نتعلم الدرس؟! فحين نحرر أنفسنا من طغيان، نتعلم ألا نمد السجادة لطغيان آخر، مهما اتّخذ من شكل أو اختفى عبر أقنعة، أو استغل ما له معنى خاصاً في نفوس الناس . . . ينبغي طوال الوقت أن نبحث عن حريتنا، ولا نترك لأيٍّ ما أن يستلبها منا . . . . لأن السلطة دائماً لها غواياتها، وكثيراً ما تبدل الناس حين تغدو السلطة بين أيديهم. ينبغي أن نتعلم الدرس الذي قد لا يحوّل «الربيع» إلى «جحيم» جديد. فهناك دائماً من يشتغل على امتطاء فعل التغيير؛ وقد تبقى المؤسسة على هيئتها، والسلطة ذات البأس قد تبقى على بأسها، الوجوه تتغير، وتغيير معها شكلها، وتفرض رؤاها بذرائع تدغدغ مشاعر الناس، لكنها في حقيقة الأمر ستكون استبداداً جديداً وطغياناً آخر.

***

وهنا يحضرني الكواكبي مرة أخرى، ففي كتابه ذائع الصيت «**طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**» ما نصه: «وهي كلمات حق وصرخة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح، لقد تذهب غداً بالأوتاد». إذن فلربما أن كلمات الأمس البعيد وصرخاته تكاد تتضافر اليوم مع ريح تقلب الراهن وتقلعه. هل هو اقتلاع من الجذور؟ هل هو تهشيم للبنى السائدة؟ هل هو خلخلة لعلاقات مجتمعية راسخة؟ هل هو اقتلاع فقط لما لا يغور أكثر من الطبقة الأولى؟ فما الذي يعنيه الانعتاق من ربقة الظلم؟ هل هو الخلاص من فاعله أم الخلاص منه أم من كليهما؟ لعل ما يبدو أكثر جلاءً في الحراك الشعبي العربي من محيطه إلى خليجه، أنه حراك لم يعد يطيق الطغاةَ ولا طغيانهم، تعب الناس وملوا، أنهكوا وسرقوا وحطمتْ أحلامهم وكسّرت خطواتُهم التي كانت تنشد حياة أفضَل لا تقل فيها الكرامة أهمية عن الخبز! . . . فكلاهما يتضافر مع الآخر . . . ولكن . . . لا شيء كان يتغير، ولا بصيص أمل؛ كل يوم يأتي يكون أسوأ من الذي سبقه، والناس يخدِّرها أن غداً يمكن أن يكون أحسن، ولكن لا شيء يتحسن، كل شيء إذا ما تغير فإنه يتغير نحو الأسوأ. الإنسان في الوطن العربي؛ سواء أكان عربياً أم ينتمي لأية قومية أخرى فيه، بات غريباً في موطنه، غريباً في مكانه.

***

إن كانت صرخات هذه الأيام ستهز أوتاد الظلم في الغد، فإن المسافة الفاصلة ما بين الصرخة والغد الذي ستميد فيه الأوتاد هي مسافة فعل، مساحة عمل. . . . ولنذكر دائماً أن الطغيان لا يقوم على مقومات الطغاة فحسب، بل يسنده ويغذيه ويبقيه طغاةٌ من خارجه، هؤلاء الذين ينشدون بقاء مصالحهم واستمرارها بغض النظر عن لون من يحكمون طالما هم يدينون بالولاء لهم.

***

إن الصراخ والشعارات تغدو ذات قيمة ودلالة حين تتحول إلى قوة، والقوة ليست كماً فقط، القوة هي كيف أيضاً، وهي لا تتحقق دفعة واحدة ومرة واحدة . . . . فحين تتضافر الصرخة مع كل فعل يومي، وحين يتضافر الشعار مع كل عمل تقوم به في مجالات الحياة المختلفة، حينها يكون للقوة معناها الحقيقي في إحداث تغيير، فلا يمكنك أن تكون ثائراً في ساحة عامة، وتصرخ حالماً شعارات تنادي بحقك في أن تكون حراً، وفي حريتك في أن تعبر عما تريد بالطريقة التي تريد، وحين تعود إلى موقع عملك، أو إلى أسرتك أو محيطك الاجتماعي، لا تسمح بأي صوت غير صوتك.

***

إن ما يحدث في حجرة صف هو المعيار الحقيقي للتغيير المجتمعي. إن ما يحدث في مصنع، في سوق، في حقل، عند حاجز عسكري، في مكتبة، في مركز ثقافي، في ورشة، في حجرة انتظار، في شارع، في رصيف، على منصة، في مدرج ملعب، في سينما، في معرض، في حافلة، في مختبر، في مزرعة، في دار عبادة، في ساحة عامة، في أستوديو، في مقهى، في مطعم، . . . إن ما يحدث في أي مكان، وفي كل مكان، هو المعيار الحقيقي لإحداث تغيير جوهري . . . . هذا إذا كان التغيير مطلباً، أو إذا كان أمراً ينبغي التطلع إليه.

***

أما إذا أردنا طبعة جديدة من الاضطهاد، فإن وصفتها هي الأسهل . . . سيهب الناس، وسيأتي من يسرقون صوتهم ويوهمونهم بالتغيير، فيزول الحاكم ويبقى الحكم على حاله. . . . مجتمع أكثر حرية وأكثر عدالة وأقل عسفاً وأقل تسلطاً . . . لا نتطلع إلى مجتمع مثالي، لأنه لا يمكن أن يقوم أي مجتمع إنساني على صورة مثالية، بل يقوم على صورة ممكنة، والصورة الممكنة ليست وهماً كما الصورة المثالية. . . . ولكنها كي تكون، ينبغي أن يشتغل الناس من أجلها، وأهم ما فيها أن يكون المجال الاجتماعي فضاء يتيح للجميع، أفراداً وجماعات، أن يعبروا وأن يساهموا في مجتمعهم.

ولعلي اختتم مقالتي هذه باقتباس يبدو وكأنه خُطَ لأيامنا هذه: «**ومبنى قاعدة أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد هو**: أن معرفة الغاية شرط طبيعي للإقدام على كل عمل، كما أن معرفة الغاية لا تفيد شيئاً إذا جهل الطريق الموصل إليها؛ والمعرفة الإجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقاً، بل لا بد من تعيين المطلب والخطة تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الكل، أو لرأي الأكثرية . . . . حيث إذا كانت الغاية مبهمة نوعاً، يكون الأقدام ناقصاً نوعاً، وإذا كانت مجهولة بالكلية عند قسم من الناس أو مخالفة لرأيهم، فهؤلاء ينضمون إلى المستبد، فتكون فتنة شعواء؛ وإذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط، تكون حينئذ الغلبة في جانب المستبد مطلقاً. ثم إذا كانت الغاية مبهمة، ولم يكن السير في سبيل معروف، ويوشك أن يقع الخلاف في أثناء الطريق، فيفسد العمل أيضاً، وينقلب إلى انتقام وفتن. ولذلك، يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص، وإشهارها بين الكافة، والسعي في إقناعهم، واستحصال رضائهم بها ما أمكن ذلك، بل الأولى حمل العوام على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم. والمراد أن من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن أن يستبدل بها الاستبداد، وليس هذا بالأمر الهيِّن الذي تكفيه فكرة ساعات، أو فطنة آحاد، وليس هو بأسهل من ترتيب المقاومة والمغالبة. وهذا الاستعداد الفكري النظري لا يجوز أن يكون مقصوراً على الخواص، بل لا بد من تعميمه، وعلى حسب الإمكان، ليكون بعيداً عن الغايات ومعضوداً بقبول الرأي العام".

***

ولنتذكر مرة أخرى الكواكبي: "وهي كلمات حق وصرخة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح، لقد تذهب غداً بالأوتاد"، وهذا ربما ما ينبغي علينا كمعلمين أن نتذكره جيداً، وأن نكون فاعلين في مجالنا التعليمي، ولعل صوتاً لنا اليوم سيترك أثره على غد.

من فعاليات المساق التأسيسي (دراما في التعليم) للعام 2011 – 2012.